اسم الدرس : تفسير سورة الأعراف (٢) | الآيات [٤ : ٩]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، محمد -صلّى الله عليه وسلّم-.

نستكمل بإذن الله -عزّ وجلّ- ما بدأناه من تفسير أو وقفات تربوية مع سورة الأعراف.

تذكير بما سبق

المص ﴿١﴾ كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

توقفنا في المرة الماضية عند نهاية الآية الثالثة {اتّبعوا ما أنزل إليكم من ربّكم ولا تتّبعوا من دونه أولياء قليلًا ما تذكّرون}، وتكلمنا عن موقع سورة الأعراف في ترتيب المصحف، ومجيء سورة الأعراف بعد سورة الأنعام، وما في ذلك من حكم، وبعد ذلك تحدّثنا عن محاور أساسية في سورة الأعراف، ونؤكّد دائمًا على نقطةٍ مهمّةٍ، هي: أنّ الوصول إلى معنىً محوريٍّ في سورةٍ طويلة أمرٌ يُفضّل أن يكون بعد دراسة السورة.

هناك بعض الناس يتعجّلون فيطلبون معرفة موضوع السورة من البداية، فيسألونك عن موضوع سورة الأنعام مثلًا، أو موضوع سورة التوبة، أو سورة آل عمران، وهذا نوع من التعجّل؛ وتعاملٌ مع القرآن كنوعٍ من الترف الفكري، أي أن تكون عالمًا ببعض الموضوعات في القرآن، لكن من دون معايشة أو مكابدة.

وقد قال النبي -صلّى الله عليه وسلّم- فيما يروى عنه: (شيّبتني هود وأخواتها)[1]، فآيات القرآن تتنزّل على الإنسان تنزّلًا ليعايشها {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل:٥].

والقضية في التعامل مع القرآن، ليست أن تكون عارفًا لبعض موضوعاته، -على سبيل المثال، أن تقرأ سورة الكهف، فتقول: أنا أعلم عن ماذا تتكلم- هذه ليست القضية، وإنّما ماذا بعد أن عرفت معناها؟! فالقضية هي أن تعايش هذه الآيات، وتتخلّق بها في حياتك، وتحاول أن تطبّقها، وتتعلّم معانيها،

١ [عن وهب بن عبدالله السوائي أبي جحيفة:] قالوا: يا رسولَ اللهِ ! قد شِبْتَ؟ ! قال: شيَّبتني هودٌ وأخواتُها. وفي روايةٍ: شيَّبتني هودٌ، والواقعةُ، والمرسلاتُ، وعمَّ يتساءلونَ، وإذا الشمسُ كُوِّرتْ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، تخريج مشكاة المصابيح ٥٢٨٣ • صحيح لغيره وإسناده صحيح •

وتتدبّرها؛ لأنّ التدبّر في معاني آيات الله –عزّ وجلّ– لا ينتهي {مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ}[لقمان:٢٧]، وكما قيل في إحدى معاني هذه الآية ما نفدت معاني كلمات الله –سبحانه وتعالى–.

وبعد حديثنا عن المحاور الأساسية في سورة الأعراف، بدأنا بـ{المص}، وتكلّمنا عن الحروف المقطعة والخلاف الذي فيها.

ثمّ تحدّثنا عن محورٍ من المحاور الأساسية في هذه السورة، وهو: قضية الرسالة، والكتاب، **فالله –عزّ وجلّ– الذي خلق كما تعرّفنا عليه في سورة الأنعام، هو في سورة الأعراف الآن يأمر ويُنزّل رسالةً وكتابًا**.

فبداية سورة الأنعام {الحمد لله الذي خلق}، أما سورة الأعراف بدأت بـ{كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ}، وجاء فيها الجمع بين الأمرين: {ألا له الخلق والأمر}، **أي أنّ الذي خلق هو الذي يأمر ويشرّع، ولا حقّ في التشريع لمن لم يخلق**. فكيف نستورد مناهج ودساتير أرضية من بشر مثلنا؟!

لذلك قال الله –عزّ وجلّ– {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ}، والإنزال دائمًا يكون من علوّ، فيخبرنا الله –عزّ وجلّ– أنّ ما معكم من كتابٍ جاء من علوّ –من الأعلى سبحانه وتعالى– فلماذا تنزلون وتلجؤون إلى الأرض؟

{ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ }

وذكرنا في معنى { قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ } أن قلّة من الناس هي التي تستجيب، ولو تتبّعت لفظ أو كلمة (أكثر) في القرآن، فستجد غالبًا أنّ الأكثرية مذمومةٌ في القرآن.

إذًا، **فالأكثرية ليست معيارًا في حدّ ذاتها، بل ينبغي أن يضاف إليها معايير أخرى**، فعندما نريد أن نحكم أو نقارن بين فكرتين، أو بين عالمين، أو شخصين، فلا ينبغي أن يكون المعيار هو كثرة الأتباع فحسب، ولكن اجتماع الكثرة مع عوامل أخرى قد يجعل منها فائدة، فكثرة اجتماع العلماء على قولٍ ما مثلًا يصبح فائدة، لأنه اجتمع لدينا هنا عاملان: ١–أنّهم علماء، ٢–كثرتهم، فلم يقتصر على الكثرة وحدها.

فقد قال الإمام أحمد بن حنبل في ما روي عنه: "بيننا وبينهم الجنائز"، وكانت جنازته كبيرة، ولكن ليست كل جنازة كبيرة تدل على الحق، فكم من هالك مشهور بين الناس جنازته كبيرة وهو ليس على الحق.

إذًا، القضية هي أن هناك مجموعةً من العلماء، وعلى الحق، وهم كثرة، فالكثرة هنا ليست في حدّ ذاتها معيارًا، إنما قد نلجأ إليها عندما تجتمع مع معايير أخرى، وعلى سبيل المثال، هناك شخص يريد الراحة ولا قدرة لديه على طلب العلم فيأخذ برأي الجمهور من أهل العلم؛ فهوهنا يضع نفسه في نسبة كبيرة من الأمان.

وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

وإذا عُدنا إلى تسلسل الآيات:

- حيث بدأت بالحروف المقطعة -وقد تكلمنا عنها-،
- ثم أخبرنا الله -عزّ وجلّ- أنّ هذا الكتاب المعجز قد جاء من هذه الحروف، وأنه ينبغي أن تنشرح به الصدور ولا تضيق، وهذا الكتاب إنما جاء لوظيفتين: وظيفة الإنذار للكفار، والتذكير للمؤمنين {لتنذر به} أي الكفار {وذكرى للمؤمنين}،
- ثم أخبرنا الله -عزّ وجلّ- أنه لا بد من تطبيقٍ بعد الإنذار والذكرى، فلا ينبغي أن نستمع إلى القرآن من أجل أن نستمتع به، وإنما كي نطبّقه فقال: {اتبعوا}.

عدم اتباع ما أنزل إلينا يؤدي إلى الهلاك ولا عبرة للكثرة

ثم بعد ذلك تأتي الآية الرابعة، فيذكر الله -عزّ وجلّ- فيها أنّ قليلًا من الناس هم الذين يتذكّرون، فقال ربنا: {وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ}.

و(كم) هنا تُفيد الكثرة، والأصل فيها أنها تأتي للاستفهام، لكن إذا خرجت عن الاستفهام يصبح لها دلالة أخرى فنسميها: (كم الخبرية)؛ أي أنّه عندما يأتي حرف الاستفهام في جملة ولا يقصد به السؤال، يكتسب الاستفهام معنىً آخر، فيقال: الاستفهام استنكاري، أو الاستفهام تعجبي، فالغرض منه لا يكون الاستفهام فحسب.

عندما تحدثنا منذ فترة في (خطبة سورة الملك) قلنا أن من أكثر الأشياء التي تكررت في سورة الملك هي الأسئلة -حيث كانت خطبةً بعنوان ((أسئلة سورة الملك))-، وتلك الأسئلة لم يكن الغرض منها الحصول على إجابة، وإنما كان لكل سؤالٍ غرضٌ آخر، وقد جمعها بعضهم في أكثر من عشرين غرضًا للاستفهام.

فهنا (كم) خبرية ليس المقصد منها السؤال {وكم من قرية أهلكناها}، وهي تفيد الكثرة: **أي أنّ كثيرًا من القرى قد أُهلكت، والسبب ذُكر في الآية التي قبلها؛ فهم لم يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم.**

إذًا، عدم اتّباع ما أُنزل إلينا من ربنا يؤدي إلى الهلاك عاجلًا أو آجلًا، فربنا بعدما قال: {اتبعوا}، بيّن لنا أن الذي لن يتبع سوف يهلك {وكم من قرية أهلكناها}، ولا عبرة لكثرتهم، فالكثرة لم تمنعهم من عذاب الله.

وكما جاء في سورة القمر{ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ }[القمر:٤٤] فأحيانًا الكثرة والاجتماع على الباطل يغُرّ أهل الباطل، فيظنّون أنهم لن يُغلَبوا وهم كثر.

وقد كانوا يعتقدون ذلك في بداية البعثة، حيث القوى العالمية تجتمع ضد الإسلام، فلا يمكن لها أن تُهزم، فكانوا يقولون: { نحن جميع منتصر}، فماذا قال ربنا؟ { سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ }[القمر:٤٥]، أي هذه الكثرة سوف تهزم؛ فكان التركيز على معنى الكثرة.

وهنا لما قال ربنا {قليلًا ما تذكّرون}، يخبرنا -سبحانه وتعالى- أنّ هذه الكثرة لم تمنع من نزول العذاب، وأن الله -عزّ وجلّ- لا يعجزه شيء -سبحانه وتعالى-، وأن من أهان نفسه بالمعصية والشرك والكفر استحق نزول العذاب، فلا ينبغي أن نتعجّب من هلاك الناس -على كثرتهم- لأنهم هم من أعرضوا عن الملك -سبحانه وتعالى-، وعن أوامره .

كيف يأتي البأس بعد الإهلاك؟

{ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ } وقد وقف المفسرون هنا عند (الفاء)، وأشهر فاء معروفة في اللغة هي فاء العطف (حروف العطف ثلاثة: ثم،الفاء،الواو)، وفاء العطف تفيد التعقيب ، بمعنى أنّ حدثًا قد حدث، ثم حدث بعده حدثٌ آخر، فنقول: (جاء محمد فأحمد)،أي: جاء محمدٌ أولًا.

فإذا كان (أهلكناها) بمعنى أنهم ماتوا وأُهلكوا بالفعل، فلماذا جاء البأس بعد ذلك؟ وما فائدة (فجاءها بأسنا)؟

والتفسير دائمًا يكون على قسمين: قسمٌ يجعلك تكتشف أنّ هناك إشكالية، والقسم الآخر يكون محاولة حل هذه الإشكالية، وأحيانًا قد تجد إشكاليةً ولا تجد لها حلًا، فلا تتعجّل بالإجابة، فترى بعض المفسرين يسجّل أنّ هنا يوجد معنىً بالتأكيد، لكن لم يُفتح له بعد فيه.

إذًا، فالمفسرون التقطوا هنا أنّ هذا السياق فيه شيءٌ غريبٌ و مختلف، فالفاء في {أهلكناها فجاءها بأسنا} لا تفيد التعقيب؛ بمعنى أنّ البأس جاء بعد الإهلاك، لأنه إذا كان ربنا قد أهلكهم بالفعل فلن يبقى أناس حتى يأتيهم البأس!

لذلك حاول المفسرون أن يكتشفوا الحل، ودائمًا ما تُكتشف معاني القرآن بهذا الشكل: تجد أنّ هناك تغييرًا في ترتيب الجملة كأن يأتي المفعول مقدمًا على الفاعل، أو تجد حرف عطفٍ ليس في مكانه، أو حرفًا من الحروف قد اكتسب دلالة جديدة، أو كلمةً غريبة نطقها صعب، مثل هذه القضايا هي التي تفتح للمفسر معانٍ في تدبر كتاب الله -سبحانه وتعالى-.

- وأول معنىً ذكره بعض المفسرين -وهو الإمام الطبري- أنّ معنى {أهلكناها} هو بالخذلان عن الطاعة، وأن **بداية الإهلاك هو أن يصرف الله -عزّ وجلّ- عنك طاعته**، فنقول أنّ فلانًا هالكٌ وهو يعيش بيننا أي أنه مصروف عن الطاعة -والعياذ بالله-، **فمعنى (أهلكناها) هنا ليس الإهلاك البدني، بل أنهم صُرفوا عن الطاعة فاستحقّوا العذاب فجاءهم البأس**،

ومثالها قوله سبحانه وتعالى: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا }[الإسراء:١٦].

والكلام في هذه الآية طويل؛ لأن هناك خلافًا كبيرًا في معنى {أمرنا} والقراءات الواردة فيها، والشاهد في هذه الآية أنهم لما فسقوا استحقوا العذاب فحق عليها القول، وهذا هو المعنى الأول لـ {أهلكناها} أي: بالخذلان، {فجاءها العذاب}

- والمعنى الثاني لـ {أهلكناها} هو: **حكمنا بإهلاكها ولم يأت التنفيذ بعد**، أي في قضائه -سبحانه وتعالى-، وفي السنن التي وضعها ربنا في الكون أن هذه القرية سوف تهلك، وبعد أن استحقت الإهلاك بقضائه -سبحانه وتعالى- وبعدله جاءها البأس، فهنا (الفاء) من الممكن أن تفيد التعقيب.

إذًا، المعنى الأول للإهلاك هو: الخذلان عن الطاعة، والمعنى الثاني للإهلاك هو: القضاء أو الحكم، لكن التنفيذ لم يأت {فجاءها بأسنا} أي قضينا بذلك.

- وهناك معنىً ثالث قال به البعض، حيث رأوا أن المعنيين الأول والثاني للإهلاك ((الخذلان عن الطاعة،والحكم)) بُنيا على أن الفاء تفيد التعقيب، لكننا نستطيع أن نغيّر معنى الفاء بدلًا من أن نغيّر معنى الإهلاك، فنقول **أن الفاء هي التي لها معنى مختلف، وليس الإهلاك**.

فقالوا أن هذه الفاء تفسيرية -بعضهم اختلف في التسمية لكن مجازًا سنسميها تفسيرية-، بمعنى **أن الإهلاك هو نفسه {فجاءها بأسنا}**، ومثال ذلك قولنا: أنا أمسكت فلانًا وضربته فكسرته، فالضرب هنا هو التكسير، وليس المعنى أنه بعد أن انتهى من الضرب رجع مرة أخرى وكسره، وكذلك قولنا: أنا أكلت الأكل فنسفته، والأكل هنا هو النسف، فقالوا أن هذه الفاء فسرت أن الأكل هذا مختلف، فكان هناك معنى النسف مثلًا، وأنّ الفاء في (ضربته فكسرته)، فسّرت أن الضرب هذا كان مختلفًا، فالفاء جاءت تفسيرية لهذا الفعل.

فقالوا أنّ الفاء في{أهلكناها فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون} **فسّرت كيف كان هذا الإهلاك، حيث جاءها البأس في وقت الغفلة** -وسنتكلم عن أوقات الغفلة لاحقًا-، إذًا فهم قالوا بأنه بدلًا من تغيير معنى الإهلاك نعتبر أن الفاء تفسيرية.

- وهذه هي أشهر الأقوال التي قيلت، وهناك معنى رابع أيضًا -ويشبه الأقوال السابقة- **أن الزمن عند الله مختلف**، فالله -عزّ وجلّ- إذا قضى أمرًا فليس هناك مسافة، إنما يقول له كن فيكون، فقالوا أن الفاء في هذه الآية لا تفيد التعقيب، كما أنه في "كن فيكون" ليس هناك مسافة زمنية بين كن ويكون، فذلك في تخيلنا نحن، بينما الزمن عند الله مختلف، وحتى لو كانت الفاء عند البشر تفيد فارقًا زمنيًا معيّنًا فهي عند الله ليست كذلك ، وهذا هو الفارق بين معاملة البشر ومعاملة الله -سبحانه وتعالى-، وذلك كان هو القول الرابع في هذه الآية.

هم يحاربون الله سبحانه لا أهل الإيمان

{وكم من قرية} أي هم كثير، فأنت عندما تقرأ هذه الآية قد تتحسر لأن هناك أناس كثيرون جدًا ابتعدوا عن الله، ولم يتذكروا على الرغم من وجود الآيات، فالله -عزّ وجلّ- لم يتركهم سدى، أرسل إليهم الرسل وأنزل إليهم الكتب، وعلى الرغم من ذلك: {قليلًا ما تذكرون}.

{وكم من قرية أهلكناها} وذكرنا أن سبب الإهلاك هوعدم الاتباع، فهم لم يتبعوا ما أنزل إليهم فأهلكهم.

{وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا} كما جاءتهم الرسل فأعرضوا، يأتيهم البأس {فجاءها بأسنا}، والبأس هو القوة التي لا تدفع.

وقد تكلّم علماء اللغة في كلمة "البأس"،

- فقال بعضهم هو القحط أو الفقر والجدب،
- وقال بعضهم أنّ: كلمة البأس كانت العرب تستعملها في الحرب؛ فلأنهم حاربوا الله بالمعصية والإعراض عن كتابه فانظروا ماذا حدث. مثلما قال الله –عزّ وجلّ– عن آكل الربا: { فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}[البقرة:٢٧٩]، فهنا {فجاءها بأسنا} **كأنّ فيه إشارة أن الذي يُعرض عن شرع الله –عزّ وجلّ– إنما يحارب الله، وليس أهل الإيمان!.**

فهو يعتقد أنه يغيظ أهل الإيمان عندما يبتعد عن الشرع، لأنه مشغول بالبشر، لكنّ ربنا يقول له أنت تحارب الله بابتعادك عن شرعه،

{فجاءها بأسنا} ولم يقل (فجاءهم البأس)، والنسبة إلى نون العظمة –بأسنا– تعني أنه بأس مختلف لم تروه من قبل، فالله –عزّ وجلّ– هو القوي العزيز الذي لا يُغالب، ومهما بلغ البشر من قوة فإنهم لن يستطيعوا دفع العذاب { مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ } [الطور:٨] أي لا أحد يستطيع أن يهرب منه.

أوقات الغفلة

{فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون}

والبيات يعني النوم بالليل، أو الجلوس في طمأنينة في مكانٍ ليلًا فنقول: ((فلان يبيت في مكان)).

و{قائلون} بمعنى نوم الظهيرة، هذه أوقات الغفلة التي يكون الإنسان فيها مستريحًا، فالذي ينام في الظهر، أو ينام في الليل يكون غير خائفٍ من شيء، لأنّ الإنسان القلِق المفزوع لا ينام في هذه الأوقات، والذي ينام في هذه الأوقات غالبًا ما يكون مطمئنًا.

أو لو أنه كان خائفًا من شيء ما، أو قلِقًا من شخصٍ مثلًا ونام في مثل هذه الأوقات فلا بدّ أنه قد وضع حراسة شديدة بحيث يكون في مكان منيع و حصن مشيد، ولا يستطيع أحد الوصول إليه، فتجده على الرغم من وجود الأعداء الذين يتربصون به نائمًا مطمئنًا.

وهنا يقول ربنا أنهم قد وصلوا إلى درجة من الطمأنينة لم يعودوا فيها خائفين على الرغم من أنّ الرسل خوفتهم من العذاب، وهي مرحلة النسيان والغفلة.

فآية كاملة أو آيتين من سورة الأعراف فصّلت **كيف يصل الناس إلى مرحلة الغفلة، وذلك بنسيان ما ذكروا به.**

وهذه ذكرت في الأنعام والأعراف بصيغ مختلفة –سنتكلم عنها إن شاء الله–، أن يصل إلى درجة لا يعود فيها خائفًا أصلًا، فأحيانًا عندما يفعل الإنسان معصية تجده ينام مجهدًا خائفًا متضايقًا، أما في هذه المرحلة فهو ينام مطمئنًا، ولا يشعر أنه قد فعل خطأً ما، وعندما يصل الإنسان إلى هذه المرحلة من الغفلة يأتيه العذاب فجأة بغتة.

إذًا، فكلمة (بياتًا أو هم قائلون) توضح لك الحالة النفسية التي وصل الناس إليها من الإعراض، فلم يعد أحد يخاف من شيء { وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ } [الحشر:٢]،{ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا } [الكهف:٣٥].

فالذي يصل إلى درجة من الاستقرار بأنّ ما هو فيه من النعيم لن يذهب أبدًا، ينام وهو مطمئن، لا يخاف من شيء.

{فجاءها بأسنا بياتًا أو هم قائلون} والعذاب عندما يأتي في هذه الأوقات –أوقات الراحة والغفلة– يكون مؤلمًا، فأنت عندما تحدث لك مشكلة في الليل تكون منكدًا، ولا تستطيع أن تنام، فلك أن تتخيلهم عندما يأتيهم بأس الله وعذابه في وقت النوم والغفلة!، فإنه سيكون أشد قوةً وأشد لذعةً.

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

الدنيا والآخرة في مشهد واحد متصل

إنّ هذه السورة في أول مقطع –قبل حكاية قصة خلق آدم– عرضت مقدمة سريعة: هناك أناسٌ أرسل إليهم فأعرضوا، فعُذّبوا، فجاء يوم القيامة، فسئلوا، فوزنت أعمالهم، فدخلوا النار، ثم تعود لتروي القصة من أولها {ولقد خلقناكم}.

هذه مقدمة في سورة الأعراف، ملخصٌ سريع وبعد ذلك يأتي التفصيل؛ لذلك ذكرنا أنّ من معاني "ص" التي رويت عن بعض السلف {آلمص}: أنا الله أعلم وأفصّل، فذكرت السورة المعنى المجمل أولًا، وبعد ذلك يأتي التفصيل.

ملخص سريع: أتاهم الكتاب، {قليلًا ما تذكرون}، أعرضوا عنه، فأهلكهم الله، فماذا فعلوا بعد نزول العذاب؟

{ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ }

انظر كيف أن العذاب الدنيوي –بعد ما أهلكوا في الدنيا– متبوع مباشرة بمشهد القيامة! {فلنسألن الذين أرسل إليهم} **وهذا القطع وعدم وجود فواصل زمنية بين الدنيا والآخرة، لا تجدوه إلا في القرآن**، حيث النقلة السريعة مباشرة ما بين الدنيا والآخرة، **وكأنهما في مشهد واحد متصل**، لتكون عقيدة المؤمن على هذا النحو، الدنيا عنده مربوطة بالآخرة وليست منفصلة عنها، فلا يجزع من طول البلاء في الدنيا، لأنه يعلم أن المشهد متصل، فعندما يرى أناسًا من أهل الإيمان قُتلوا وعُذبوا و شردوا في الدنيا لا يفزع ولا ييأس ويحبط، فالمشهد عنده لم ينته بعد.

وحينما ينظر المؤمن إلى نهاية أصحاب الأخدود في سورة البروج، ويجد أن النار تأكلهم وتشتعل بهم، لا يجزع فهو يعلم أن المشهد لم ينته بعد؛ لأن الآخرة متصلة بالدنيا.

معنى "دعواهم"

{ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ }

وقد قال العلماء في (دعواهم) ثلاث معانٍ:

- المعنى الأول والمشهور: أي فما كان دعاؤهم، كما في قوله سبحانه: { وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } [يونس:١٠] في آخر الزمر، فالدعوى أحيانًا تأتي بمعنى الدعاء، وأنه بمجرد ما ذاقوا البأس قالوا: {إنا كنا ظالمين}، وكلامهم هذا عبارة عن اعتراف بالذنب، فهم لم يقولوا: (ربنا اصرف عنا العذاب)، بل قالوا: {إنا كنا ظالمين}.

على الرغم أنه من لحظات كان معرضًا وغافلًا، ينكر ويجادل، وربما كان قبل أن يرى العذاب يقول: "أنا لست مقتنعًا أن هذا حرام، وأنا غير مقتنع بشرع الله وأنه يجب أن نتبعه"، وأول ما يذوق العذاب يعترف، ويقول: "أنا كنت مخطئًا".

فهل اقتنع فجأة؟، أم أن العذاب عندما نزل كان معه حجة وأدلة؟، أم أن الإنسان -كثير من الناس- لا يستجيب إلا للقوة، ولا يستجيب لمعايير العقل؟، فعندما تكلمه وتقنعه وتأتي الآيات والبينات يعرض.

وسبق أن ذكرنا أنّ من محاور سورة الأعراف التعامل الخاطئ مع الآيات، وقلنا أنّ كلمة (الآيات) هي أكثر كلمة تكررت في سورة الأعراف، وقد ذكرت في سورة الأعراف أكثر من أي سورة أخرى، فبمجرد ما رأوا العذاب دون اقتناع أو أدلة أو مناقشة اعترفوا!

والشاهد من هذا إذا ما قلنا بأنّ (دعواهم) بمعنى الدعاء، وأن هذه الكلمة خرجت حقيقةً اعترافًا حقيقيًّا منهم، لا لمجرد الهروب من العذاب، فالذي اختار هذا القول مآل كلامه أن كثيرًا من الناس يعرضون عن شهوةٍ، لا عن اقتناع، فلا تضيع وقتك معهم.

وهناك من الناس من يصل إلى مرحلة من السفسطة والجدال، فلا تكمل النقاش معه، لأنه ليس معرضًا عن عدم اقتناع، وإنما عن شهوة، وبمجرد ما يقع في مرض عظيم أو مشكلة أو في منتصف البحر، يقول: "يارب أنا عرفت أني كنت مخطئًا"، {إنا كنا ظالمين}، فهنا توجد إشارةٌ إلى أنّ كثيرًا من إعراض الناس مبنيٌّ على شهوة، وليس على اقتناعٍ بشيء خاطئ، إنما هو يتبع شهواته فحسب.

- أما المعنى الثاني لـ(دعواهم) فقد قال بعضهم أي: ادعاء، فهو يدَّعي ذلك، ويقول أي كلام لكي يهرب من العقاب، ولأن هذا مجرد ادعاء، فلذلك لم يستجب له.

مثل قول فرعون: { آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ }[يونس:٩٠]، فهو أعرض عن كل الآيات -تسع آيات بينات مفصلات-، ثم أول ما بدأ يغرق اقتنع!، وقال:

"آمنت"، ولم يقل: "آمنت بالله الذي لا إله إلا هو"، بل قال: { آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ }؛ لأنه رأى أن إله بني إسرائيل قد نجاهم، فهو يريد أن ينجو فحسب، والقضية عنده هي النجاة، لا الإيمان؛ لذلك لم يستجب له، فهنا الدعوة بمعنى الادعاء.

- بينما المعنى الثالث للدعوة يقوم على وجود لفظة محذوفة يدل عليها السياق، وهي: مآل، أي: [فما كان مآل دعواهم إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين]، فماذا يعني مآل دعواهم؟ يعني أنهم كانوا يدَّعون على ربنا، ويفترون، ويقولون الشرك، ويخترعون قوانين ومناهج أرضية...، كلها ادعاءات وافتراءات على الله -عزّ وجلّ-، فما كان مآلها عند نزول العذاب؟ لم تنفعهم شيئًا {إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين} أين ما ادعيتم؟ أين آلهتكم؟ أين أولياؤكم؟

{فما كان دعواهم} أي: فما كان نتيجة الكفر والتكذيب ومآله إلا أنه لم ينفعكم أحد { لم تغن عنهم آلهتهم من الله شيئًا}، {وما نرى معكم شفعاءكم}.

فالمعنى الثالث هو أن **كل منهج تتبعه غير دين الله -عزّ وجلّ- وكتابه سوف تتخلى عنه في يوم من الأيام، وتكفر به في يوم من الأيام حين نزول العذاب فاتركه من الآن.**

إذًا، فكلمة (دعواهم) فيها ثلاثة أقوال:

- المعنى الأول: الدعاء، وأنه صادق في كلمة {إنا كنا ظالمين} لما نزل العذاب، وهذا معناه أنه كان متبعًا للشهوات، وليس في حاجة إلى إقناع.
- المعنى الثاني: دعواهم أي: ادعاء، فهو لا يفكر إلا في النجاة، مثل فرعون.
- المعنى الثالث: دعواهم، أي: مآل أو نتيجة، فالله -عزّ وجلّ- يخبرنا أن نتيجة الكفر والتكذيب والمعاصي أن الإنسان يعترف على نفسه بالمعصية والذنب، وروي عن النبي -صلى الله عليه وسلم-في حديث ضعّفه بعض أهل العلم: (أن الله -عزّ وجلّ- لا يهلك قومًا حتى يعذروا من أنفسهم[٢]) أي: حتى يعترفوا بأنفسهم أنهم كانوا مقصرين، ثم يهلكهم الله -عزّ وجلّ-، وقرأ ابن مسعود هذه الآية بعد أن روى هذا الحديث.

٢ [عن عبدالله بن مسعود:] ما هلك قومٌ حتّى يُعذروا من أنفسِهم. قال: قلتُ لعبدِ الملِكِ: كيف يكونُ ذاك؟ قال: فقرأ هذه الآيةَ: {فَما كانَ دَعْواهُمْ إِذْ جاءَهُمْ بَأْسُنا إِلّا أَنْ قالُوا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ}
أحمد شاكر (ت ١٣٧٧)، عمدة التفسير ٦/٢ • ما نراه صحيحا •

سنسأل عن الرسلة

{إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين} وهنا ينتقل المشهد مباشرة {فلنسألن الذين أرسل إليهم}، وهذا السؤال يكون يوم القيامة، والإهلاك الذي كان في الدنيا قد يكون لأمم سابقة أهلكوا بالفعل من قرون، ويأتي سؤال يوم القيامة بعده بمئات وآلاف السنين، وتأتي الواسطة بهذه الفاء (فلنسألن)، حتى لا يستطيل المؤمن هذه الحياة الدنيا، ويشعر بأن الآخرة مرتبطة بالحياة الدنيا، فالناس أهلكت وأتاهم رسول وكتاب، واجتمعت الخصوم عند الله –عزّ وجلّ–، ثم جاء السؤال {فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين}.

في المرة السابقة عندما تكلمنا عن محاور سورة الأعراف قلنا أن قضية الرسالة، أو الكتاب، أو الآيات سيكون لها إشارات في هذه السورة؛ لذلك هنا لم يقل ربنا: (فلنسألن الأقوام ولنسألن الأنبياء)، بل أتى باسم موصول {فلنسألن الذين}، **والاسم الموصول يأتي للتعريف بقضية معينة**.

وعندما تقرأ هذه الآية تجد أن التركيز هنا على محور الرسالة، فالله سمّى الأقوام "الذين أرسل إليهم" أي معروف أنكم أقوام أتتكم رسالة، والذي جاءهم سمّاه الله رسولًا "ولنسألن المرسلين"، فلم يقل ربنا: (فلنسألن الأقوام)؛ لأن القضية أن الله –عزّ وجلّ– يريد أن يبين لنا أن محور الرسالة محور مهم ستسألون عنه يوم القيامة، وأن الإنسان ليس موجودًا للعبث { أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا }[المؤمنون:١١٥]، فالإنسان لا يعيش سدى { أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى }[القيامة:٣٦].

{فلنسألن الذين أرسل إليهم} ربنا يقول لهم ماذا فعلتم مع رسالاتي؟، هو –سبحانه وتعالى– قال لكم في أول سورة الأعراف {اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم}، فهل اتبعتم رسولي، و رسالاتي؟، ثم يسأل الرسل ماذا قلتم لهم؟ هل بلغتم الرسالة ؟.

عن ماذا سيسأل المرسلون؟

وهذا السؤال {فلنسألن المرسلين} حيّر المفسرين، فماذا سيسأل الله –عزّ وجلّ– الرسل؟، بالنسبة للذين أرسل إليهم الأمر مفهوم لأنهم كذبوا، أما{فلنسألن المرسلين} فعن ماذا سيسألهم؟.

- قال بعض المفسرين: سيسألهم ماذا فعلت الأقوام؟، والدليل على هذا من القرآن في آخر سورة المائدة { يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ } [المائدة:١٠٩]، أي ماذا كانت إجابة الأقوام { قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ }؛
- وقد قال الإمام الطبري –في بعض الآثار– أن الرسل عندما قالوا ليس لدينا علم، معناها أنهم لم يستطيعوا أن يجيبوا من هول الموقف.
- وقال البعض أن عدم العلم هذا هو في حال كان سؤال الملك –سبحانه وتعالى– لهم ماذا فعلت الأقوام بعد موتكم؟، فقالوا: يارب لا نعلم.
- في حين قال بعضهم أن السؤال الموجّه للمرسلين لم يكن ماذا أُجبتم فحسب، بل أيضًا هل بلغتم رسالاتي كاملة؟ كما جاء في آخر سورة المائدة حيث يقول ربنا لسيدنا عيسى: {ءأنت قلت للناس} هل قلت كذا وكذا؟ وهل الذي قلتَه قد أمرتك أن تقوله؟

وحينما يتخيل الداعية إلى الله –عزّ وجلّ– هذا السؤال يُفترض أن يفزع ويخاف، فكل كلمة أنت قلتها ستسأل عنها هل ربنا أمرك أن تقولها؟، لماذا قلت للناس هذا؟، لماذا تكلمت وبلغت هذه الآيات؟، أأنت قلت للناس كذا وكذا؟، تخيل لو أن كل داعية يستحضر هذه الأسئلة.

لذلك **فمن الاحتراز التزام النصوص**، لكي تقول عندما تُسأل: يارب أنا بلغت رسالاتك (آيات وأحاديث)، وكلما ابتعدت كنت في خطر.

ونشاهد حوارًا في نفس السورة أيضًا يبين أن المحور قضية الرسالة، وذلك في قصة نبي الله صالح في الآية ٧٥ من نفس السورة {قال الملأ الذين استكبروا من قومه} أي من قوم صالح –الملأ– {للذين استضعفوا لمن ءامن منهم}، ليس كلهم، لأنه ليس كل المستضعفين قد آمنوا {أتعلمون أن صالحًا مرسلٌ}، فالكفار يسألون عن قضية الرسالة، والإجابة عن هذا السؤال {أتعلمون أن صالحًا مرسلٌ من ربه} من المتوقع أن تكون إما نعم، أو لا، فهذا سؤال استفهام، والمستكبرون يسألون المستضعفين إن كان صالحٌ مرسلًا أم غير مرسل.

لكن انظر إلى الإيمان الكامل عند المؤمنين {قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون} فهم تجاوزوا الإجابة بنعم، ولم يجيبوا بأنه مرسلٌ فحسب، بل إننا آمنا بما أرسل به!.

فالقضية كلها تدور حول محور الرسالة، والكفار من عنادهم قالوا {قال الذين استكبروا إنا بالذي ءامنتم به} وليس [بالذي أرسل به]، **فأي شيء أنتم مؤمنون به نحن سنكفر به، وهذا يؤكد أن القضية عناد، وأن الكفر هنا كان كفر عناد**، فالآيات واضحة، لكنهم لم يعطوا أنفسهم فرصة.

عندما سُئل المستضعفون المؤمنون عن كون صالح مرسلًا من ربه، والمؤمنون أجابوا: (إنا بما أرسل به مؤمنون)، فلم يقولوا لهم اشرحوا لنا رسالة صالح لعلّنا نؤمن، هذا هو الطبيعي، وإنما قالوا بأن أي شيء ستؤمنون به فنحن سنكفر به مباشرة.

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

سؤال تقريري

ولنتابع معًا اتصال الآيات، حيث قال الله –سبحانه وتعالى– بعد هذا السؤال حتى لا يقع في أذهان بعض الناس أنه لم يكن عن علم { فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ}، **فهذا السؤال ليس لأن الله –عزّ وجلّ– لا يعلم –حاشاه سبحانه وتعالى–، وإنما للتقرير**.

وكذلك عندما سأل ربنا سيدنا عيسى {ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ} كان ليبرئه أمام الناس، وليكون جوابه حسرة على النصارى يوم القيامة، فيقف أمامهم ويتبرأ منهم، لذلك كان جواب عيسى عليه السلام {مَا قُلتُ لَهُم إِلَّا مَآ أَمَرتَنِى بِهِ } أي أنا بلّغت، هذه الآيات في آخر سورة المائدة، وفي نفس السورة جاء {يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغ مَآ أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّم تَفعَل فَمَا بَلَّغتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ} فمحور السؤال عن المضمون، ماذا قلت للناس؟.

وهنا يقول ربنا: {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيهِم بِعِلم} أي أن هذا السؤال لم يكن لعدم علمه –سبحانه وتعالى–.

(فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيهِم) أي على الأقوام، وعلى المواقف التي حدثت بين الأقوام والرسل. قال ابن عطية: "قصة... قصة" فربنا سيقول لهم ما حدث قصة قصة، وموقفًا موقفًا، أنتم في يوم كذا عُرِض عليكم الدين فاستهزأتم، كذبتم، أعرضتم، عذبتم، شردتم، فعلتم، كفرتم... قصة قصة، فيا لحسرة الإنسان عندما تعرض عليه حياته قصة قصة، وهو في غفلة!

{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيهِم بِعِلم} ولام القسم للتأكيد.

تخيل عندما تعود الأحداث وتتكرر -نسأل الله أن يعفو عنا-، أحيانًا توجد معاصٍ عندما يتذكرها الشخص يتمنى أن يرمي نفسه في البحر، ومن ستر الله -عزّ وجلّ- على المؤمنين ألا يخبرهم بها، أو يخبرهم بها وهم في كنفه وستره، ثم يعفو عنهم، لكن تخيل عندما يحكى هذا أمام كل الناس -والعياذ بالله.-

وما كنا غائبين

{فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيهِم بِعِلمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ} أتمنى أن نخرج بهذا الشعار القرآني.

تمر على الإنسان أحيانًا أحداث تجعله يكاد يشك في وجود الله، فيتعجب ويتساءل أين تدَخُّل القدرة الإلهية!، وقد تمر ابتلاءات متتاليات من موتٍ لشباب وتقتيلهم، وتعذيبٍ، وتشريد، وتنكيل، تجعل بعض الناس يتساءل، فتأتي هذه الآية لتجعل الإنسان يعيش مطمئنًا {وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ}.

إياك أن تعتقد أن هذه الأحداث حدثت بمنأىً عن علمه وقدرته،أبدًا!، إنما حدثت هذه الأحداث وقدرها الله -عزّ وجلّ- ليستخرج العبودية من أهل الإيمان، والطغيان والكفر من الآخرين {لِّيَهلِكَ مَن هَلَكَ عَن بَيِّنَة} [الأنفال:٤٢].

وهناك شعار مشابه لهذا الشعار، وهو: { وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ} [الأنبياء:٥١] في سورة الأنبياء، وقد قيلت هذه الآية عن سيدنا إبراهيم { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ}

وأحد الأقوال فيها: أي في اللحظات والابتلاءات التي مر بها من تجميع قومه للحطب له، وإرادة إلقائه في النار، وعندما رموه في النار، في هذه اللحظات كلها كان الله -عزّ وجلّ- معه، ولم يتركه، وفي محاوراته ومجادلاته لقومه لم يكن الله -عزّ وجلّ- غائباً عنه.

هذه الآية تجعلك مطمئنًا {وَمَا كُنَّا غَآبِينَ}، إياك أن تعتقد أن علم الله -عزّ وجلّ- يغيب عنه شيء {لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ} [سبإ:٣]، لا يغيب عنه أي حدث، وما تسيل قطرة دم إلا ويعلمها الله -سبحانه وتعالى-.

وعندما تسمع عن استكبار الأقوام والملأ على مدار هذه السورة من الممكن أن تتعجل وتقول: أين ربنا! ، لكن يوجد سنن لنزول العذاب.

فمن المحاور الرئيسية أيضًا في سورة الأعراف أنها تعرّفك تطور الأمم في التكذيب والفحش، وأن المعصية تتطور، والفحش يزداد، ولا يتوقف عند حدٍّ معين، ومن الممكن مع تطور المعصية أن تقول: أين ربنا!، فيخبرك الله -عزّ وجلّ- {فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيهِم بِعِلمٍ وَمَا كُنَّا غَآبِينَ}.

فعند أي حدث مؤلم تسمع عنه من موت شاب، أو تقتيل، أو تشريد، تذكّر هذه الآية: {وَمَا كُنَّا غَآبِينَ}.

وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

وزن الأعمال يوم القيامة

ثم بعد ذلك {وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ}، تتتابع الأحداث، ولنراجعها مرة أخرى:

- جاءهم كتاب {قليلًا ما تذكّرون}،
- أمر بالاتباع،فأعرضوا،
- فأُهلِكوا،فجاءهم البأس،
- ثم طلبوا النجاة {إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ}،
- وبعد ذلك انتقل المشهد إلى يوم القيامة: السؤال، والإخبار بأفعالهم،
- والآن جاء وزن الأعمال؛ حتى لا يظلمهم الله –سبحانه وتعالى–.

فالله –عزّ وجلّ– من فضله وكرمه– لا من عدله فحسب– يزن لهم الأعمال أمامهم، ولو أن ربنا –سبحانه وتعالى– أهلكهم وأدخلهم النار، فلن يسأله أحد، ومن يملك من الله شيئًا؟!، لكن من فضله وكرمه وكمال عدله يزن لهم أعمالهم، يسألهم، ويقص عليهم، ثم يزن أعمالهم ((لنسألن، لنقصن، الوزن)).

{وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ الحَقُّ} أي يوجد ميزان يوم القيامة توزن به الأعمال، وهذه الآية ذكر فيها معنيان:

- فقال البعض أن معناها: والوزن الحق يومئذ، وأن الحق صفة للوزن.
- في حين قال بعضهم: والوزن لا يكون حقًا إلا في ذلك اليوم.

والشاهد أن هذا **فيه إشارة إلى أنّ كثيرًا من موازين أهل الدنيا مغلوطة**، وأن هناك معايير كثيرة يستعملها البشر بصورة خاطئة، **فيجب على المؤمن أن يضبط ميزانه في الدنيا على ميزان الآخرة، وهذا هو المفلح.**

الميزان يأتي لوزن الأشياء؛ الثقل من الخفة، فعندما تأتي لوزن شيء ما، أنت تزنه حتى تعرف هل هو ثقيل أم خفيف.

نأتي لنزن الكلام مع بعض، فهذا الكلام مثلًا خفيف ((أي كلام))، وهناك قول ثقيل {إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا}.

يوجد كلام ثقيل في ميزان الشرع، ويوجد كلام في ميزان الشرع هو كما أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم-: (الرجل التافه يتكلم في أمور العامة[٣]) فكلامه لا قيمة له.

هذه الموازين غالبًا مختلة في الدنيا؛ والناس لا تتعامل بها، فمعايير الدنيا هي: القوة، والغنى، والجمال...، فهناك معايير أخرى، والناس تنبهر بأشياء معينة، أما في الآخرة فالمعايير مختلفة.

ميزانك ثقيل أم خفيف؟

والذي يستطيع ألا يتأثر بفتن الدنيا، ومعايير الدنيا، ويضبط ميزانه على ميزان الآخرة هو المفلح،

لذلك قال ربنا -سبحانه وتعالى-: {فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ}، وقد قال بعض أهل العلم: "كانت الطاعة ثقيلة عليهم واجتهدوا وجاهدوا أنفسهم فثقلت الموازين"، جاهدوا أنفسهم، كما في قول الله -عزّ وجلّ-: {ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ} [آل عمران: ٢٠٠].

أما الأعمال التي كانت خفيفة على النفوس، فكان يفعل أي شيء تريده نفسه، فتكون نفسه خفيفة وأفعاله لا قيمة لها؛ أي كان إنسانًا تافهًا، فهذا حين توضع موازينه تكون خفيفة.

لذلك فهناك كلام ثقيل يأتي يوم القيامة له ثقل ووزن في ميزان يوم القيامة، وهناك أعمال ثقيلة.

وقد يفعل الشخص عملًا يكون عند الناس في الدنيا عظيمًا جدًا، وهو يوم القيامة لا يزن شيئًا، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: (يؤتى بالرجل العظيم السمين يوم القيامة[٤] -رجل عند أهل الدنيا فخم جدًا- وهو لا يزن عند الله جناح بعوضة).

---

٣ [عن أنس بن مالك وأبي هريرة:] سيأتي على الناسِ سنواتٌ خدّاعاتٌ؛ يُصدَّقُ فيها الكاذِبُ، ويُكذَّبُ فيها الصادِقُ، ويُؤتَمَنُ فيها الخائِنُ، ويخَوَّنُ فيها الأمينُ، وينطِقُ فيها الرُّوَيْبِضَةُ. قِيلَ: وما الرُّوَيْبِضَةُ؟ قال: الرجُلُ التافِهُ يتَكلَّمُ في أمرِ العامةِ
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٣٦٥٠ • صحيح •

وعندما ضحك بعض الصحابة من دقة قدم ابن مسعود –رضي الله عنه–، قال –صلى الله عليه وسلم–: (أتضحكوا من دقة ساقيه؟، لهما أثقل في الميزان –يوم القيامة– من أُحد)[٥]، فالموازين يوم القيامة مختلفة عن الدنيا.

وقد تسيطر علينا المعايير الزائفة –كانت هناك خطبة بهذا المعنى–، فيخبرنا الله –عزّ وجلّ– أن الذي يثقل في ميزان يوم القيامة هو الذي أخبر الله عنه أنه ثقيل {فَمَن ثَقُلَت مَوازِينُه}.

لذلك إذا وجدت أن كل حياتك سهلة وخفيفة عليك، وليس هناك شيء تجاهد فيه نفسك، إذًا فهناك شيء خاطئ.

{وَأَمَّا مَن خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفسَ عَنِ ٱلهَوَىٰ}[النازعات: ٤٠] **فمن سيدخل الجنة يجب أن ينهى نفسه {وَنَهَى ٱلنَّفسَ عَنِ ٱلهَوَىٰ، فَإِنَّ ٱلجَنَّةَ هِيَ ٱلمَأوَىٰ} ، ومن لا يستطيع أن يجاهد نفسه وينهاها ويقول لها هذه الكلمة ((لا))، فذلك موازينه خفيفة.**

فانظر إلى أعمالك، وقيّمها، وقيّم كلامك؛ هل هو من الكلام الثقيل الذي يكون له وزن عند الله؟.

قيّم أنت أفعالك، فهناك شخص ضحّى، وجاهد، ونصر دين الله، وبذل، وفي معايير الدنيا قد يعتقدونه سفيهاً.

{قَالُوٓاْ أَنُؤمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ}[البقرة:١٣]، فاليهود ومنافقو المدينة قالوا عن المهاجرين والأنصار –في أول سورة البقرة–، وعن تضحيتهم بأوطانهم وأموالهم، وعن تضحية الأنصار بأموالهم، أنّ هذا الفعل سفه، فأخبرهم الله –عزّ وجل– أنهم هم السفهاء، { أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ}.

---

٤ [عن أبي هريرة:] إنَّه لَيَأْتي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَومَ القِيامَةِ، لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَناحَ بَعُوضَةٍ، وقالَ: اقْرَؤُوا، {فَلا نُقِيمُ لهمْ يَومَ القِيامَةِ وزْنًا} البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٧٢٩ • [صحيح]

٥ [عن عبدالله بن مسعود:] أنَّ عبدَ اللهِ بنَ مسعودٍ كان يحتَزُّ لرسولِ اللهِ ﷺ سواكًا مِن أراكٍ وكان في ساقَيْهِ دقَّةٌ فضحِك القومُ فقال النَّبيُّ ﷺ: (ما يُضحِكُكم مِن دقَّةِ ساقَيْهِ والَّذي نفسي بيدِه إنَّهما أثقَلُ في الميزانِ مِن أُحُدٍ)
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٧٠٦٩ • أخرجه في صحيحه

فهذه موازين مختلفة، لذلك عليك أنت أن تقيّم أفعالك؛ إن كانت ثقيلة في ميزان الشرع أم لا، فقد تكون ضغطت على نفسك، واستيقظت وصليت الفجر، و يرى شخصٌ ما أن هذا أمرعادي، وهو في الحقيقة عمل ثقيل!.

لذلك يخبرنا النبي –صلى الله عليه وسلم– أن هناك أعمالًا ثقيلة على المنافقين لا يستطيعونها، فلا يفعلونها (أثقل الصلاة على المنافقين الفجر والعشاء)[٦]

يقول ربنا –سبحانه وتعالى–: {وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّ} فكل عمل فعله الإنسان، وكل كلمة قالها سوف توزن، وكما يقول النبي –صلى الله عليه وسلم–: (إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا –هو لا يعلم قيمة وقدر هذه الكلمة– من غضب الله يهوي بها في النار سبعين خريفًا)[٧]، فانظر إلى عظم الكلمة!.

ميزان الشرع وميزان الناس

قضية الموازين ما بين الدنيا والآخرة تحتاج من الإنسان إلى مراجعة { وَتَحۡسَبُونَهُۥ هَيِّنٗا } [النور:١٥]، فقد يكون عمل ما بالنسبة لك شيئًا عاديًّا {وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٞ}.

فكيف ننظر إلى الأعمال والأقوال بميزان الشرع؟، وكيف نزن الأفراد بموازين الشرع؟، تجد اثنان يتكلمان عن شخص ما، فيقول الأول: فلان رجل فذٌّ، و ...، و...، والآخر يقول :لا، فلان رجل ظالم، و...، و...، فما هي الموازين التي يتحاكمون إليها؟ قد يكون هذا يتكلم وفق ميزان، والآخر يتكلم وفق ميزان آخر.

فميزان الشرع –كما قلت– مختلف، وقد يكون الإنسان عند الناس عظيمًا وهو عند الله حقير.

---

٦ [عن أبي هريرة:] إنَّ أَثْقَلَ صَلاةٍ على المُنافِقِينَ صَلاةُ العِشاءِ، وَصَلاةُ الفَجْرِ، ولو يَعْلَمُونَ ما فِيهِما لَأَتَوْهُما ولو حَبْوًا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بالصَّلاةِ، فَتُقامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فيُصَلِّيَ بالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي برِجالٍ معهُمْ حُزَمٌ مِن حَطَبٍ إلى قَوْمٍ لا يَشْهَدُونَ الصَّلاةَ، فَأُحَرِّقَ عليهم بُيُوتَهُمْ بالنَّارِ.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٦٥١ • [صحيح] •

٧ [عن أبي هريرة:] إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن رِضْوانِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَرْفَعُهُ اللَّهُ بها دَرَجاتٍ، وإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِن سَخَطِ اللَّهِ، لا يُلْقِي لها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤٧٨ • [صحيح]

لذلك قام النبي –صلى الله عليه وسلم– بتجربة عملية: مر عليهم رجل، فقال): ما تقولون في هذا؟)، فقالوا: هذا رجل من أغنى الناس، هذا رجل حري إذا تكلم أن يسمع، وإذا خطب أن ينكح –هذا الشخص كل الناس تحب أن تتقرب منه–، ثم مر رجل، فقال النبي –صلى الله عليه وسلم:– (ما تقولون في هذا؟) –رجل مسكين فقير–، قالوا: يا رسول الله حري إذا تكلم ألا يسمع له، وإذا خطب ألا ينكح –من الذي يقبل به–، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (لَهذا الفقير خير من ملء الأرض من مثل هذا)[٨]، فانتبه إلى المفارقة {ٱنظُر كَيفَ فَضَّلنَا بَعضَهُم عَلَىٰ بَعض} [الإسراء:٢١] أي في الدنيا، { وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا } ، فالمفاضلة في الآخرة مختلفة تمامًا.

لذلك قال الله –سبحانه وتعالى– عن أوصاف يوم القيامة {خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ}[الواقعة:٣] أي أنّ الإنسان قد يكون مرفوعًا في الدنيا فيخفض –والعياذ بالله–.

المتكبرون يوم القيامة يحشرون أمثال الذر[٩] (النمل)، يطؤهم الناس بأقدامهم، فالمعايير اختلفت.

الموازين يوم القيامة وكيفية تثقيلها

{فَمَن ثَقُلَت مَوَازِينُهُ} وقد تحدث العلماء في مسألة الموازين وسبب مجيئها بالجمع:

- فبعضهم قال لتعدد الأعمال الموزونة؛ أي أن الجمع للموزونات لا للميزان.
- وقال البعض الآخر أنه قد وردت أدلة في القرآن والسنة بأن الله –عزّ وجلّ– يزن الأعمال، وأن الشخص نفسه يوزن؛ فمن الممكن أن يوضع الشخص نفسه، أو أن الأعمال تجسد وتوضع، وأيًّا يكن فهم قد وجدوا أن هناك أكثر من شيء ورد له ذكر أنه سيوزن، فلذلك جاء هذا الجمع.
- بينما قال آخرون إنه لتعدد الأشخاص.

---

٨ [عن سهل بن سعد الساعدي:] مَرَّ رَجُلٌ على رَسولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقالَ: ما تَقُولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أنْ يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ أنْ يُشَفَّعَ، وإنْ قالَ أنْ يُسْتَمَعَ، قالَ: ثُمَّ سَكَتَ، فَمَرَّ رَجُلٌ مِن فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، فَقالَ: ما تَقُولونَ في هذا؟ قالوا: حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أنْ لا يُنْكَحَ، وإنْ شَفَعَ أنْ لا يُشَفَّعَ، وإنْ قالَ أنْ لا يُسْتَمَعَ، فَقالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ : هذا خَيْرٌ مِن مِلْءِ الأرْضِ مِثْلَ هذا.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٥٠٩١ • [صحيح] •

٩ [عن [جد عمرو بن شعيب]:] يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يومَ القيامةِ أمْثالَ الذَّرِّ في صُوَرِ الرِّجالِ يَغْشاهُمُ الذُّلُّ من كلِّ مَكانٍ يُساقُونَ إلى سِجْنٍ في جهنَّمَ يُسَمَّى: بُولَسَ تَعْلوهُمْ نارُ الأنْيارِ، يُسْقَوْنَ من عُصارَةِ أهلِ النارِ طِينَةَ الخَبالِ
الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٤٩٢ • حسن صحيح •

وأهل السنة أو الجمهور يثبتون وجود ميزان حقيقي يوم القيامة، وأن الميزان ليس معنىً مجازيًّا.

{فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}

والقضية هنا هي كيف تُغلّب جانب الحسنات، وطالما أن هناك موازين، فهذا يفتح باب أمل لمن وقع في بعض المعاصي، (اتبع السيئة الحسنة تمحها)[١٠]، فيحاول أن يكثر من الحسنات، وخاصة الحسنات الماحيات التي تكون ثقيلة.

لذلك فإن ابن عمر لما سمع حديث اتباع الجنازة، وأن الذي يصلي الجنازة ويتبعها له قيراطان، والقيراط مثل جبل أحد -تخيل وزن جبل أحد!-، ندم وقال: "لقد فرطنا في قراريط كثيرة"[١١]، فالإنسان عليه أن يبحث عن الأعمال التي تجعل ميزانه ثقيلًا يوم القيامة.

وكما قلنا أنّ الذي يريد أن يصيب الأفعال والأقوال الثقيلة فعليه اتباع القول الثقيل {إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا} [المزمل:٥]، والذي يترك هذا القول الثقيل -أي القرآن- غالبًا ما يُستَخفُّ به، ويكون إنسانًا خفيفًا يسهل خداعه {فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ} [الروم:٦٠]، فإذا ما ابتعد الإنسان عن القرآن يصبح من السهل جدًا أن يُخدَع، ويتأثر بمعايير أهل الدنيا.

١٠ [عن أبي ذر الغفاري:] اتَّقِ اللهَ حيثُما كنتَ، وأتبِعِ السَّيِّئةَ الحسَنةَ تمْحُها، وخالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسنٍ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الترغيب ٢٦٥٥ • حسن لغيره • أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وأحمد (٢١٣٩٢) •

١١ [عن عبدالله بن عمر:] حُدِّثَ ابنُ عُمَرَ أنَّ أبا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عنْهمْ يقولُ: مَن تَبِعَ جَنازَةً فَلَهُ قِيراطٌ فَقالَ: أكْثَرَ أبو هُرَيْرَةَ عَلَيْنا، فَصَدَّقَتْ يَعْنِي عائِشَةَ أبا هُرَيْرَةَ، وقالَتْ: سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُهُ فَقالَ ابنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عنْها: لَقَدْ فَرَّطْنا في قَراريطَ كَثِيرَةٍ فَرَّطْتُ: ضَيَّعْتُ مِن أمْرِ اللَّهِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ١٣٢٣ • [صحيح] •

المفلح مقابل من خفت موازينه

{فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلمفلِحُونَ}، أي: الفائزون، ولفظ "الفَلَاح" دائماً يأتي لمن قطع وشقَّ شيئًا، فالفلّاح يشق الأرض، وقيل أن السحور سمي بالفلاح، كما في قول بعض الصحابة عندما أطال النبي –صلى الله عليه وسلم– بهم صلاة القيام: "حتى خشينا أن يفوتنا الفلَاح"[١٢]، وقد اختلف بعضهم في سبب تسمية السحور فلاحًا:

- فقيل لأن البطن كانت خاوية طوال هذه الفترة فأول ما شق البطن كان هذا الطعام.
- أو لأن السحور هو الذي يبلغهم الوصول إلى المغرب، فسمي بالفلاح الذي يجعل باستطاعتهم أن يشقوا الصيام طوال النهار إلى المغرب.

فقضية الفلاح فيها شق وتعب {فَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلمفلِحُونَ} أي فازوا بعد تعب وكد.

{وَمَن خَفَّت مَوَازِينُهُ}، أي: عاش حياته على راحته ولم يفعل أي شيء ثقيل على نفسه، ولم يجاهد نفسه أبدًا، وينهاها عن الهوى، وكانت حياته تافهة خفيفة {فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ}.

وقال ابن عاشور كلمة جميلة جدًّا: {خَسِرُوٓا أَنفُسَهُم} أي: فقدوا فوائدها، وقد وضّح ابن عاشور وأطال هو وغيره من المفسرين في هذا المعنى، وملخصه :أن هذه النفس كانت لها قيمة عالية، وكان من الممكن أن تصل بهذه النفس إلى الفردوس، فقد كان معك عملة عظيمة، ولكنك خسرتها، وخسرت الفوائد التي كانت تستطيع نفسك أن تفعلها.

ففي داخل كل نفس منا تقوىً وفجور {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾}[الشمس:٧-٨]، فالذي يخرج التقوى التي في داخل النفس هو الذي فاز بنفسه، والذي يخرج الفجور الذي في داخل نفسه، ويغطي على التقوى، هو الذي خسر نفسه.

---

١٢ [عن أبي ذر الغفاري:] صُمْنا مع نبيِّ الله ﷺ رمضانَ فلم يقُمْ بنا في السّادسةِ وقام بنا في الخامسةِ حتّى ذهَب ينتظرُ اللَّيلَ فقُلْنا: يا رسولَ اللهِ لو نفَّلْتَنا بقيّةَ ليلتِنا هذه فقال: (إنَّه مَن قام مع الإمامِ حتّى ينصرِفَ كُتِب له قيامُ ليلةٍ) ثمَّ لم يُصَلِّ بنا حتّى بقي ثلاثةٌ مِن الشَّهرِ فقام بنا في الثّالثةِ وجمَع أهلَه ونساءَه فقام بنا حتّى تخوَّفْنا أنْ يفوتَنا الفلاحُ قُلْتُ: وما الفلاحُ؟ قال: السَّحورُ
ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٢٥٤٧ • أخرجه في صحيحه •

هذه النفس نفس غالية كرّمها الله وأعطاها القدرة على الوصول إلى الجنة، لكن النفس قد خُيِّرت، كما قال الله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا}[الشمس:٩]، **فالذي سيتعامل مع النفس ويزكيها، ويربيها، ويدعو الله –عزّ وجلّ– أن يطهرها له هو الذي يفلح، أما من يترك النفس فقد خسرها، خسر هذه النفس التي كانت من الممكن أن تدخله الفردوس فأدخلها جهنم والعياذ بالله.**

هذا هو معنى فقدوا فوائدها، فكل شخص لديه طاقة وموهبة، وهذه الموهبة من الممكن أن يستغلها في الطاعات والبذل، فأحيانًا تجد أن لدى أهل الباطل مواهب فذة، وتراه يجاهد ويسافر ويتعب من أجل الباطل، فهو لديه مواهب فعلًا، لكنه استغلها في الباطل، ((فمثلًا شخص مثل أحمد موسى موهوب، حتى إن الموهبة يفترض أن تسمّى باسمه، أو الحسيني مثلًا))، فهذه مواهب استغلها في مكانٍ معين، وكان من الممكن له أن يستغلها استغلالًا آخر.

والشاهد أن كل إنسان عنده مواهب، مثلما قال النبي –صلى الله عليه وسلم–: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس:الصحة والفراغ)[١٣]، فالكثير من الناس لديهم نفس الشيئين: الوقت والصحة، وهناك شخص قد ينال الفردوس بهاتين العملتين ، وآخر من الممكن أن ينزل بهما إلى قاع جهنم، والعياذ بالله.

فالذي دخل الفردوس لم يكن معه شيء إضافي؛ صحة وفراغ فحسب، وليس مالًا؛ فهو يذكر الله، ويقيم الليل، ويفعل الطاعات، والشخص الآخر لديه أيضًا صحة وفراغ، ولكن استغلهم في المعاصي، لذلك استخدم النبي –صلى الله عليه وسلم– لفظًا يُستخدم أيضًا في التجارة فقال: (نعمتان مغبون)، والغبن هو الخسارة الفاحشة.

١٣ [عن عبدالله بن عباس:] نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤١٢ • [صحيح] •

سبب الخسران

{فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم }

لماذا خسروا أنفسهم؟ {بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَظلِمُونَ}، ومثلما قلنا **هذا من أحد محاور السورة: التعامل الخاطئ مع الآيات.**

{فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَظلِمُونَ}

وهذه الآية فيها باءان اثنتان، والباء حرف له معنى، فحروف المعاني سواء كانت حروف جر أو غيرها لها معانٍ ودلالات.

ونحن أحيانًا قد نقف مع لفظة ما، مثلما وقفنا مع لفظة [البأس] ،أو كما في المرة السابقة حين وقفنا مع لفظة [الحَرَج] التي حاولنا أن نحللها ونتحدث عن المعاني التي فيها، لنتكلم عن أصلها اللغوي وكيف وقف العلماء معها، كذلك فإن العلماء يقفون مع الحرف –وهذا يخبرك إلى أي مدى يصل إعجاز القرآن– فكل حرف له معنى، وبعض العلماء يرى أن كل حرف له أكثر من معنى، والبعض الآخر يقول بجمع كل معاني الحرف للوصول إلى معنى واحد.

ومن أراد أن يتوسع في هذا الأمر، أحيله إلى كتابين للدكتور محمد الخُضَري، هما: ((من أسرار حروف الجر))، و((من أسرار حروف العطف في القرآن)).

المشهور في معاني الباء في اللغة معنيان أو ثلاثة، بعضهم قد عد عشرة معانٍ، والبعض الآخر قال: نجمعهم في معنى واحد، وأشهر معانٍ للباء،هي: باء الآلة/الاستعانة، وباء المصاحبة، وباء السببية.

- نقول مثلًا: أنا أتيت من القاهرة بالسيارة، فهذه الباء هي باء الآلة أو الاستعانة، أي: أنا استعنت بهذه السيارة.
- وعندما أقول: تأتي من القاهرة بالسلامة، فمن المؤكد أنك لن تركب السلامة وتأتي، فهذه الباء هي باء المصاحبة.

- وعندما أقول: (بسم الله)، هل أستعين بالله؟ أم أستصحب اسم الله؟ هنا يوجد خلاف، فإذا قلنا: أن الباء باء الآلة أو الاستعانة، يكون معناها: أستعين بالله، وإذا قلنا: باء المصاحبة، يكون معناها أستصحب اسم الله أثناء القراءة -قراءة القرآن-، أو أستعين بالله في فهم القرآن، لأنك تبسمل في بداية القرآن.

- والباء الثالثة المشهورة هي باء السببية؛ فحينما نسأل: لماذا فعلت كذا؟ يكون الجواب: بسبب كذا.

وبالعودة إلى الآية : {فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظلِمُونَ}

فإنّ بعض المفسرين قال أن الباء الأولى هي باء السبب، والباء الثانية باء الاستصحاب، ومعنى ذلك هو: **أنهم خسروا أنفسهم، فخفت الموازين، فدخلوا النار، بسبب أنهم كانوا بآياتنا يظلمون** {بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظلِمُونَ}، وهذا فيه اتفاق تقريبًا.

أما بالنسبة لـ{بِـَٔايَٰتِنَا يَظلِمُونَ}، **فترتيبها أصلًا هو: يظلمون بآياتنا، وقُدمت [الآيات] للاهتمام بالآيات ورعاية الفواصل**، وفيها عدة معانٍ:

- البعض قال أنها بمعنى المصاحبة؛ أي كانوا يظلمون ويفسدون على الرغم من وجود الآيات مصاحبة لهم، فيستمر الظلم على الرغم من وجود آياتٍ تَتْرى، ووجود رسول، وآيات تتلى عليهم، وآيات كونية تحدث آية تلو آية.. آيات مفصلات.
وسيأتي في نهاية قصص سورة الأعراف: {ءَايَٰت مُّفَصَّلَٰت}، وسبق أن قلنا أنه من معاني [الصاد]: التفصيل، فآيات مفصلات لا آيات مجملة، وربنا قد أرسل لنا أكثر من ستة آلاف آية في القرآن، لا سورة واحدة فحسب، وإنما تفصيلًا، وآياتٍ كونيةً تحدث، وعلى الرغم من ذلك كله أعرضوا، فاستحقوا العذاب.
- وقال البعض الآخر معنىً غريبًا جدًا: أن هذه الباء هي باء الآلة والاستعانة، أي: كان يظلم ويستعين بالآيات، و يستغلها في الظلم؛ كأن يشرعن مثلًا لنفسه ما يفعله، أو أن يجعل الآية سببًا لصرف الناس عن الدين، مثلما قال الله: {إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا}[فصلت: ٤٠]، فبدل أن تكون الآية سببًا في سعادة الناس وسعادته، تكون الآية سببًا في شقائه -والعياذ بالله- ، مثلما عقروا الناقة، فظلموا، واستعملوا الآيات والدين في ظلمهم.

- وقال أخرون: يوجد شيء يسمى "التضمين"، أي أن فعل (يظلمون) معه فعل آخر يختبئ داخله، وقد اكتشفناه بحرف الجر "الباء"، فهو يكشف عن فعل مختبئ مضمّن هو [يجحدون]، إذ أن الباء لا تأتي مع الظلم، فكان المتوقع أن تأتي [يظلمون الآيات].

ولذلك قال بعضهم أن هذه الباء زائدة وأن معنى [ظلموا الآيات] هو: لم يقدروها قدرها، مثلما نحن نظلم القرآن، عندما نهجره، وعندما نتعامل مع القرآن على أنه مجرد كتاب الحرف فيه بعشر حسنات، أنت بهذا تظلم القرآن، فالقرآن –مع أنّ فيه هذا– هو أعظم من ذلك، القرآن غيّر أمة، ونقل الصحابة نقلة عالمية.

أنت عندما تتعامل مع القرآن على أنه كلمتين تقرؤهم لترقق قلبك فحسب –وحتى هذا لا يفعله إلا القليل–، فهذا ظلم للقرآن، فهو كتاب أمة، وليس حتى كتاب دولة، كتابٌ غيّر أمة، وأقامها، فمن الظلم جدًا للآيات أن تتعامل معها هكذا.

- ومن معاني {بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ} أيضًا: أن من أسباب أن يكون الإنسان خفيفًا في حياته، وأفعاله وكلامه خفيف، وبالتالي موازينه خفيفة، هو التعامل السطحي مع الآيات؛ أن يظلم الآيات، انظر مثلًا إلى آية عظيمة مثل الخسوف، فإنك تجد من يتعامل معها ببرود، وهذا ظلم للآيات.

فهذه هي المعاني التي قيلت في: {بِمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ}.

ثم قال الله –سبحانه وتعالى– بعد ذلك: {وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ}

وإن شاء الله، سنتحدث في المرة القادمة عن علاقة التمكين في الأرض بالآيات السابقة، ثم لماذا جُعِلت هذه الآية مقدمة للآيات، وبداية خلق آدم، والتفصيل في قصص الأمم من أول لحظة الخلق،هذا ما سنعرفه في الدرس القادم بإذن الله –عزّ وجلّ–.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.